مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ٢٠:١٦–١٨؛ ٢٨–٣٦)

في تلكَ الأيامِ ارتأى بولُسُ أن يتجاوزَ أفسُسَ في البحرِ لئلاَّ يعرِضَ له أن يُبطِئَ في آسِية، لأنه كان يعجَلُ حتى يكونَ في أورشليمَ يومَ العنصرة إن أمكنهُ* فمِن ميليتُسَ بعثَ إلى أفسُسَ فاستدعى قُسوسَ الكنيسة* فلمَّا وصلوا إليهِ قال لهم* احذَروا لأنفُسِكم ولجميعِ الرعيَّةِ التي أقامكُم الروحُ القدُسُ فيها أساقِفةً لترعَوْا كنيسةَ اللهِ التي اقتناها بدَمِه* فإنّي أعلمُ هذا أنَّه سيَدخُلُ بينكم بعد ذهابي ذِئابٌ خاطِفة لا تُشفِقُ على الرعية* ومِنكم أنفسُكم سيقومُ رِجالٌ يتكلَّمونَ بأمورٍ مُلتوية ليجتذِبوا التلاميذَ وراءَهم* لذلك اسهروا متذكِّرينَ أني مُدَّةَ ثلاثَ سِنينَ لم أكفُف ليلاً ونهاراً أن أنصَحَ كُلَّ واحدٍ بدموع* والآنَ أستودِعُكم يا إخوتي اللهَ

الإيمان النيقاوي

لم يحفظ لنا التقليد الشريف أعمال المجمع المسكوني الأول المنعقد في مدينة نيقيا (اليوم: إزنيك من أعمال تركيا) العام ٣٢٥. ولكنّ المصادر تُجمع على أنّ هذا الحَدَث كان سببه تعليم كاهن مقتدر في الوعظ، ليبيّ الأصل ويخدم في كنيسة الإسكندرية يُدعى آريوس. هذا علم في الرسائل التي وجّهها إلى أسقف الإسكندرية آنذاك، ألكسندروس، أنّ هناك زمناً كان الآب فيه موجوداً من دون الإبن، أي أنّه احتسب الإبن خليقةً في الزمن. والحق أنّه من الضروريّ الرجوع إلى المقولات الفلسفيّة اليونانيّة، التي كانت تشكّل البنية العقليّة لناس ذلك العصر، لإدراك المعنى الفعليّ لتعليم آريوس هذا.

لقد نجح الفكر المسيحيّ، في القرنين الثاني والثالث، في رسم خطٍّ واضح بين ما ينتمي إلى دائرة المخلوق وما ينتمي إلى دائرة الخالق. فالكون والإنسان والملائكة كائنات مخلوقة، أي أنّ لها بدءاً زمنيًّا. أمّا الله فأزليّ لا بدء له، وهو قائم خارج الزمن وباستقلال عنه. ولكن ماذا عن كلمة الله وابنه؟ هل هو مخلوق أم لا؟ اعتبر آريوس أنّ الإبن يجب أن يكون مخلوقاً لأنّ الكتب المقدّسة تقول إنه مولود من الآب (عبر ٥:١)، والولادة نوع من أنواع الانوجاد في الزمن. وبتأثير تيّارات الفلسفة اليونانيّة اعتُبر الكلمةُ كائناً وسيطاً بين الله والكون. بنتيجة هذا، خلص آريوس إلى أنّ الإبن، بوصفه مخلوقاً، لم يكن مساوياً للآب في الأزليّة، أي أنه كان هناك زمن كان الآب فيه موجوداً من غير الإبن. وتالياً، ذهب آريوس إلى القول إنّ الإبن ليس من طبيعة الآب، بل هو كائن دوني، رغم أنّه أسمى من الخلائق جميعها.

العدد ٢٠٠٩/٢٢

الأحد ٣١ أيار

أحد آباء المجمع المسكوني الأول

تذكار القديس الشهيد هرميوس

اللحن السادس

إنجيل السَحَر العاشر

هذا التعليم أثار بلبلة في كنيسة الإسكندرية. فالتقليد الليتورجيّ الذي حفظته الكنائس جميعها، والذي يدعو إلى السجود للآب بالإبن في الروح القدس، أو للآب والإبن والروح القدس، يوحي بأن تعليم آريوس مغلوط. إذ كيف يمكن السجود للآب بالإبن، أي بواسطة الإبن وباسمه، إذا كان الإبن خليقةً لا تختلف، في العمق، عن سائر الخلائق الأخرى التي أخرجها الله من العدم إلى

وكلمةَ نعمتِه القادرةَ أن تبنيَكم وتمنَحكم ميراثاً مع جميعِ القديسين* إنّي لم أشتهِ فِضَّةَ أو ذهبَ أو لباسَ أحدٍ* وأنتم تعلَمون أنَّ حاجاتي وحاجاتِ الذينَ معي خدَمَتْها هاتانِ اليدان* في كُلِّ شيءٍ بيَّنتُ لكم أنَّهُ هكذا ينبغي أن نتعَبَ لِنساعِدَ الضُّعفاءَ وأن نتذكَّرَ كلامَ الربِّ يسوعَ. فإنَّهُ قال إنَّ العطاءَ هو مغبوطٌ أكثرَ من الأخذ* ولمَّا قال هذا جثا على رُكبَتَيهِ مع جميعهم وصلَّى.

الإنجيل

(يوحنا ١٧: ١-١٣)

في ذلك الزمان رفع يسوعُ عينيهِ إلى السماءِ وقال يا أبتِ قد أتتِ الساعةُ. مجّدِ ابنَك ليمجّدك ابنُك أيضاً* كما أعطيتَهُ سلطاناً على كلّ بشرٍ ليُعطِيَ كلَّ من أعطيتَهُ له حياةً أبديَّة* وهذه هي الحياةُ الأبديةُ أن يعرِفوك أنت الإلهَ الحقيقيَّ والذي أرسلتَهُ يسوعَ المسيح* أنا قد مجَّدتُك على الأرض. قد أتممتُ العملَ الذي أعطيتَني لأعملَهُ* والآنَ مجّدني أنت يا أبتِ عندك بالمجدِ الذي كان لي عندَك من قبلِ كونِ العالم* قد أعلنتُ اسمَك للناسِ

الوجود؟ احتكم آريوس بعد اندلاع الخلاف، إلى أسقف الإسكندرية ألكسندروس، آملاً في أن يدعم الأخير تعليمه. لكنّ الأسقف شجب تعليم آريوس عادًّا أنّه يخالف التقاليد القديمة ولا ينسجم مع حياة الكنيسة وما تختزنه من خبرة. فما كان من آريوس إلاّ أن صعّد الخلاف باللجوء إلى بعض الأساقفة من صحبه، ممّا أدّى إلى تفاقم الأزمة وانتشارها في أنحاء الكنيسة شرقاً وغرباً. هذا حدا بالإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧) إلى الدعوة إلى مجمع عام، شارك فيه رهط كبير من أساقفة الشرق والغرب، للنظر في الخلاف. ولقد اعترفت الكنيسة جمعاء، في وقت لاحق، بصواب تعليم هذا المجمع واعتبرته المجمع المسكوني الأول.

وضع المجمع المسكوني الأول الجزء الأول من دستور الإيمان الذي ما زلنا نتلوه لغاية اليوم، من «أؤمن بإله واحد» لغاية «وبالروح القدس». هذا الجزء يختصر على الأخص التدبير الخلاصيّ الذي قام به الإبن المتجسد، على أنّ الأخير، في طبيعته الإلهيّة، «مولود غير مخلوق». المجمع إذاً، بخلاف آريوس، يميّز بين فعل الولادة وفعل الخلق. فالولادة التي تنسبها الكتب المقدسة إلى الإبن ولادة أزليّة خارج الزمن تبيّن أنّ الإبن يحمل طبيعة أبيه تماماً. فكما أنّ الآب إله حقيقيّ، كذلك الإبن إله حقيقي.وكما أنّ الآب لا بدء له، كذلك الإبن لا بدء له. وقد عبّر المجمع عن وحدة الحال هذه بين الآب والإبن بعبارة «المساوي للآب في الجوهر»، وهي عبارة لا نعثر عليها في الكتاب المقدّس، ولكنّها تعبّر عن مضمون الكتاب المقدّس من حيث أنّ الإبن يحمل طبيعة أبيه الإلهيّة ذاتها وهو، تالياً، مساوٍ له في الكرامة.

تعليم المَجمع النيقاوي هذا عمد الآباء، طيلة عقود من السنين، إلى ترسيخه وتوضيحه. ويتصدّر هؤلاء الآباء القديس أثناسيوس الإسكندري الذي اعتبر في كتابه «في تجسّد الكلمة» أنّ الإبن يجب أن يكون من طبيعة أبيه الإلهية ذاتها، لأنّ الله وحده قادر على أن يخلّص الإنسان. فإذا لم يكن الإبن إلهاً حقيقياً، كيف لتجسّده أن يكون مصدر خلاص للبشريّة؟ وإذا لم يكن الإبن إلهاً حقيقياً، كيف له أن ينتصر على الموت والفساد؟ وإذا لم يكن الإبن إلهاً حقيقيًّا، كيف له أن ينعم على الجنس البشريّ بالتألّه؟ إنّ تألّه الإنسان عند القديس أثناسيوس، الحاصل بالتجسّد والموت والقيامة والعنصرة، لا ينبع من خليقة أو من كائن وسطي هو أعلى من البشر لكنّه دون الله، بل من الإبن الجالس في حضن الآب (يو ١: ١٨) والذي يشترك مع أبيه في الطبيعة الإلهيّة ذاتها غير منقوصة. ولقد بيّن أثناسيوس، في صراعه مع الآريوسيين، أنّ أي تفسير للكتاب المقدّس لا يأخذ في الإعتبار هذه الفرضيّات الخلاصيّة إنّما هو تفسير مغلوط لا ينسجم مع إيمان الكنيسة المتوارث منذ البدء. لكن أثناسيوس لم يلجأ في دفاعه عن ألوهة يسوع وتساويه مع أبيه إلى الكتاب المقدس فحسب، بل استخدم أيضاً أدلّة فلسفيّة منها أنّ القول بأنّ الآب كان موجوداً، في وقتٍ ما من الزمن، من دون الإبن يعني أنّه لم يكن «أباً» بالفعل، وهذا لا يقبله المنطق. فالآب لا يمكنه أن يكون أباً من دون الإبن. أمّا أبوّته للبشر فهي، بحسب القديس أثناسيوس، الفرع الذي

الذين أعطيتَهم لي من العالم. هم كانوا لك وأنت أعطيتَهم لي وقد حفِظوا كلامك* والآن قد علِموا أنَّ كلَّ ما أعطيتَهُ لي هو منك* لأنَّ الكلامَ الذي أعطيتَهُ لي أعطيتُهُ لهم. وهم قبِلوا وعلِموا حقًّا أنّي منك خرجتُ وآمنوا أنَّك أرسلتني* أنا من أجلِهم أسألُ. لا أسألُ من أجلِ العالمِ بل من أجلِ الذينَ أعطيتَهم لي. لأنَّهم لك* كلُّ شيءٍ لي هو لك وكلُّ شيءٍ لك هو لي وأنا قد مُجّدتُ فيهم* ولستُ أنا بعدُ في العالم وهؤلاء هم في العالم. وأنا آتي إليك. أيُّها الآبُ القدُّوسُ احفَظْهُم باسمِك الذين أعطيتَهم لي ليكونوا واحداً كما نحن* حين كنتُ معهم في العالمِ كنتُ أحْفَظُهم باسمك. إنَّ الذين أعطيتَهم لي قد حفِظتُهم ولم يهلِكْ منهم أحدٌ إلاَّ ابنُ الهلاكِ ليتمَّ الكتابُ* أمَّا الآنَ فإنّي آتي إليك. وأنا أتكلَّمُ بهذا في العالمِ ليكونَ فرحي كامِلاً فيهم.

تأمل

«ليكون فرحي كاملاً فيهم».

أهناك فرح أسمى وأمتن من الفرح الذي يعانيه المرء في الله؟ عندما يستهدف الإنسان الفرح بعيداً عن الله

ينبثق من الأصل، والأصل هو الإبن الذي به ينال البشر التبنّي (غلا ٤: ٤–٥). ويشهد الكتاب المقدّس على ذلك بأنّه يُطلق على يسوع، دون سواه، لقب «الإبن الوحيد» (يو١:١٨). أما صفات «العبودية» التي ينسبها الكتاب أيضاً إلى يسوع، كمثل القول إنّه جاع وعطش وتعب وبكى وتألّم ومات، فمردّها إلى أنّ ابن الله الوحيد دخل التاريخ البشري، عبر تجسده، وصار إنساناً، وأخضع ذاته طوعاً لكلّ المتغيّرات التي تلمّ بالطبيعة البشريّة، بما فيها الموت. وهذا ما يفسّر، بحسب القديس أثناسيوس، أنّ الكتب المقدّسة تضفي على يسوع تارةً صفات إلهيّة وطوراً صفات بشريّة. إنّ قوام المسيحيّة كله قائم في هذا السرّ أن الإلهيّ والبشريّ يجتمعان في شخص يسوع من دون أن يذوب الواحد بالآخر. ولا أبلغ، للتعبير عن هذا السرّ، من قول الكتاب المقدّس إنّ في يسوع «يحلّ ملء اللاهوت جسدياً» (كو٢: ٩).

الصلاة الربانية

«ثمَّ بما أنَّكم أبناءٌ أرسَلَ اللهُ روحَ ابنِهِ إلى قلوبِكم صارِخاً يا أبا الآبُ. إذاً لستَ بعدُ عبداً بل ابناً وإن كنتَ ابناً فوارِثٌ للهِ بالمسيحِ» (غلا ٤: ٦–٧).

لعل الصلاة الربانية «أبانا الذي في السموات...» هي الأكثر استعمالاً لدى معظم المسيحيين في كل أنحاء العالم، في صلواتهم الخاصة صباحاً ومساءً وكلما دعت الحاجة. لكن الكنيسة الأرثوذكسية وضعت قبل تلاوتها في القداس الإلهي التضرّع الآتي: «وأهّلنا أيها السيد أن نجسر بدالّة وندعوك أباً غير مُدانين، أيها الإله السماوي ونقول: أبانا الذي في السموات، ليتقدّس اسمك...». ما الحاجة إلى الدالّة، وأين الجسارة في التوجه إلى الآب السماوي بالصلاة التي علّمنا إياها الرب يسوع المسيح نفسه؟ لماذا نطلب أن لا ندان لأننا ندعوه أباً؟

ان استعمال الرب يسوع لعبارة «أبانا» كان تحدياً كبيراً للتقاليد والتعاليم اليهودية في عصره. ففي العهد القديم كان الشعب يخافون لفظ كلمة الله أثناء قراءتهم الكتاب المقدس، وكانوا يستبدلونها بكلمة «السيد». فالله بالنسبة لهم هو الساكن في الأعالي، في السموات فوق، ولا يجوز إنزاله إلى مستوى البشر. ما فعله الرب يسوع انه حطم حاجز الخوف الذي بناه البشر بينهم وبين الله أبانا. إضافة إلى ذلك فإن الرب يسوع يستعمل لفظة «آبا» (ABBA) الآرامية عند قوله أبانا. وهذه هي اللفظة التي يستعملها الأطفال الصغار في مناداة آبائهم. وهكذا أدخل بُعداً حميمياً في توجّه الإنسان إلى الله. لذا فإن التضرّع أعلاه يتحدّث عن «دالة» وهي تلك الحالة التي يتحدث فيها الطفل مع أبيه بدلال ومحبة بريئة فيحتضن الأب ابنه بمحبة كبيرة ويلبي طلبه ولو كان صعباً.

لقد أدخل يسوع مفهوماً جديداً للعلاقة بين الله والإنسان هي علاقة أبوة، علاقة أب وطفله. استعمل يسوع عبارة حميمية وعلّم تلاميذه أن يفعلوا مثله، علماً ان صلاة «أبانا الذي في السموات» هي الصلاة الوحيدة التي علّمها الرب لتلاميذه، وكأننا هنا أمام صلاة، علامة فارقة، تميّز تلاميذ المسيح. لذا درجت العادة منذ القرون الأولى أن لا يتم تعليم هذه الصلاة لغير أبناء الكنيسة المعمَّدين الذين يحق لهم وحدهم تلاوتها. في المعمودية

فمن السهل خسرانه. ليس في الكون خير ثابت. الغني يفرح قليلاً بغناه ويرتعد جزعاً من فقده. أما كنز الصالحات فلا يتغير. الفرح الآتي من هذا الكنز معتق من كل خوف وحزن. خيرات الله ثابتة وأكيدة وخالدة. أولئك الذين يملكون فرح العالم يكونون في خوف وشك دائمين من أن يفقدوه. أما المسيحي الذي يتمتع بفرح الله فلا يعكر صفوه معكر لأنه يصبح قوياً في الله، به يعتز ويتمتع بالفرح الإلهي الفائق الطبيعة. يفرح الإنسان فرحاً عظيماً عندما يستبدل بيتاً عتيقاً ببيت جديد أنيق. ترى أي فرح يشعر به من تمكن أن يحيا في الله، من تمكن أن يشعر بالله أكثر من شعوره بالبيت والجسد والأصدقاء والأقارب. انه يفرح بالمسيح وبما يفرح له المسيح. لقد وضع السيد ناموس المحبة وكلماته شاهد. أوصى تلاميذه ما أوصاهم به. «هذا ما أوصيكم به» أن تحبوني وتجعلوني صديقاً لكم «حتى يكون فرحي فيكم ويتم فرحكم» (يو ١٥: ١١) لأن هذه الصداقة الإلهية ستجعل ما لي لكم وعند ذلك ستشعرون بالفرح الذي أفرحه. «إن متّم فحياتكم مختبئة بالمسيح الرب» (كو ٣: ٣).

القديس نقولا كاباسيلاس

نلبس المسيح ونصير إخوة له وأبناءً لله به: «لأنكم جميعاً أبناءُ اللهِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوعَ، لأنَّ كُلَّكم الذينَ اعتَمدتم بالمسيحِ قد لبِستم المسيحَ» (غلا ٣: ٢٦–٢٧). متى لبسنا المسيح وصرنا اخوة له وتلاميذ حقيقيين نستطيع أن نتلو هذه الصلاة دون أن ننسى اننا نرفعها للآب بواسطة يسوع «لأنَّ به لنا كِلينا قُدوماً في روحٍ واحدٍ إلى الآبِ، فلستم إذاً بعدُ غُرباءَ ونُزُلاً بل رعيَّةٌ مع القديسينَ وأهلِ بيتِ اللهِ» (أف٢:١٨–١٩). إذاً، الصلاة الربانية هي لتلاميذ الرب يسوع وليس لمن هم خارج الكنيسة.

لقد جعلنا يسوع من «أهل بيت الله»، وليس هناك شرف أعظم من هذا أن نكون جزءاً من عائلته الروحية كأبناء لله الآب بالتبني، اخوة لإبن الله. إنها نعمة مجانية منحنا إياها الرب ولم نقم نحن بشيء لنستحق هذه المهمة الكريمة. كذلك يجب عدم اعتبار حصولنا عليها أمراً مفروغاً منه، أي «تحصيل حاصل». كلا، يجب الجهاد للحصول عليها والمحافظة عليها. نعم، منحنا الرب يسوع إمكانية أن ننادي الله «أبانا»، لكن يجب أن نسعى لنستحق أن نستعمل هذه العبارة، لنحافظ على البنوّة التي نلناها في المعمودية لكي نبقى مستحقين أن نتعاطى مع الله بدالة كالأطفال ونطرح عليه تضرعنا كأبناء أمناء أبرياء كالأطفال.

في القداس الإلهي، حيث الكنيسة تتجلى ككنيسة، حيث تجلّي رعية القديسين «وأهل بيت الله»، تضع الكنيسة تلاوة الصلاة الربانية مباشرة قبل الإشتراك في المناولة المقدسة. فبعد صلاة السَحَر والقداس الإلهي والقراءات الكتابية والعظة والطلبات، يعلن الكاهن «أهّلنا أيها السيد أن نجسر بدالة وندعوك أباً غير مدانين». وكأننا بالكنيسة تسألنا قبل الإشتراك بجسد الرب ودمه الكريمين، أي قبل أن نصير واحداً معه، هل نحن في حياتنا اليومية نتصرَّف كتلاميذ يسوع وكإخوة له. هل هيّأنا أنفسنا بشكل لائق بالصلاة والصوم والتأمّل وفحص الضمير والعقل والقلب لكي لا يوجد ما يمنعنا من استحقاق شرف تناول جسد الرب ودمه؟ لقد قال الرب إذا كان لدينا شيء ضد اخوتنا في الإيمان، فلنذهب ونتصالح معهم وبعدها نعود ونقدِّم قرابيننا لله (متى ٥: ٢٣– ٢٤)، أي نشترك بالقرابين ونذوق ونرى «ما أطيب الرب». إعلان الكاهن «وأهّلنا أيها السيّد» هو النداء الأخير، أو التذكير الأخير لنا لفحص الذات قبل أهم شيء نقوم به في القداس، الإشتراك بالقدسات.

مَن يستطيع أن يتلو الصلاة الربانية براحة ضمير كاملة ويقين كامل انه يقولها كإبن الله، وحده يستطيع التقدّم إلى المناولة المقدسة بلا دينونة. لقد أعطانا يسوع امتيازاً كبيراً وشرفاً عظيماً أن نستطيع أن ننادي الله «أبانا»، لكن يجب أن لا ننسى اننا لا نستطيع الوصول إلى الله إلاَّ بيسوع المسيح، ولكي يوصلنا يسوع إلى الله أبيه وأبينا علينا أن نسعى بقدر ما أُعطينا من نعمة أن نكون على صورته ومثاله الذي احتمل الصلب طوعاً بناءً على صلاته «لتكن مشيئتك».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb